الفصل الثامن
دراسة بعض النصوص النثرية

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الثامن

دراسة بعض النصوص النثرية

أولا ـ الخطب الجاهلية:

لا شك أنه كان للخطابة فى العصر الجاهلى شأن كبير وأهمية عظمى. فقد كانت الخطابة سلاحهم فى المفاخرة والمنافرة، وكذلك كانوا يستخدمونها فى النصح والوعظ والإرشاد، وفى الدعوة إلى السلم وفض المنازعات وإنهاء الخصومات وفى الكثير من مناسباتهم الخاصة والعامة.

ولذلك نجدها قد اقترنت بالشجاعة فى الكثير من الأحيان. يتضح لنا ذلك فى رثائهم ومدحهم للسادة والأشراف منهم:

يقول الشاعر الجاهلى أوس بن حجر فى رثاء فضالة بن كلدة[1]:

أبا دليجة من يوصى بأرملة أم من لأشعث ذى طمرين طملال
أم من يكون خطيب القوم إن حفلوا لدى ملوك أولى كيد وأقوال

ويقول الأعشى مفتخراً بقومه وبخطبائهم[2]:

فيهم الخصب والسماحة والنجدة فيهم والخاطب المصلاق

وهكذا نجد أن الشاعر الجاهلى أوس بن حجر قد بين لنا مكانة الخطيب ومنزلته فى قومه، فهو الذى يوصى للأرامل من النساء

---

(1) ديوان أوس بن حجر تحقيق وشرح الدكتور/ محمد يوسف نجم، ص103، الطبعة الثانية، دار صادر للطباعة والنشر.

(2) ديوان الأعشى الكبير شرح وتعليق الدكتور/ محمد محمد حسين، ص265، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1974م.

وهو خطيب القوم فى المحافل ولدى الملوك وغيرهم. أما الأعشى فإنه يجمع فى صفات القوم بين الخصب والسماحة والنجدة والخطيب الذى يدوى صوته مجلجلاً.

وقد كانت الخطابة من لوازم السيادة والرياسة، ولذلك كانت تقترن بها الحكمة والشرف، نجد ذلك جلياً واضحاً فى قول الجاحظ: "ومن القدماء فى الحكمة والرياسة والخطابة عبيد بن شرية الجرهمى وأسقف نجران وأكيدر صاحب دومة الجندل، وأفيعى نجران، وذرب بن حوط، وعليم بن جناب، وعمرو بن ربيعة ... "[1].

ويقول - أيضاً: "ومن القدماء ممن كان يذكر بالقدر والرياسة والبيان والخطابة والحكمة والدهاء والنكراء: لقمان بن عاد، ولقيم بن لقمان، ومجاشع بن دارم، وسليط بن كعب بن يربوع، سموه بذلك لسلاطة لسانه. ولؤى بن غالب، وقس بن ساعدة. وقصى بن كلاب. ومن الخطباء البلغاء والحكام الرؤساء: أكثم بن صيفي، وربيعة بن حذار، وهرم بن قطبة، وعامر بن الظرب ولبيد بن ربيعة، وكان من الشعراء"[2].

ويقول الشاعر الجاهلى بشر بن أبى خازم:

وكنا إذا قلنا: هوازن أقبلى إلى الرُّشد لم يأت السَّداد خطيبها[3]

ويعلق الأستاذ الدكتور/ شوقى ضيف على ما سبق بقوله: "وتردد

---

(1) البيان والتبيين للجاحظ، ج1، ص362.
(2) المصدر السابق، ج1، ص365.
(3) المفضليات. شرح وتحقيق: أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون، ص331، الطبعة السابعة، دار المعارف.

فى كتاب البيان والتبيين وغيره من كتب الأدب أسماء طائفة كبيرة من خطباء الجاهلية الذين اشتهروا بالفصاحة ووضوح الدلالة والبيان عما فى أنفسهم مما جعل الأسماع والقلوب تهش إليهم ويعظم فى الناس خطرهم، ويشيع فى الآفاق ذكرهم، وكانوا ينتشرون فى الجزيرة بمكة والمدينة وما وراءهما من قبائل البادية"[1].

ولا شك أن هذه الصفات التى وجدت عند الكثير من الخطباء الجاهلين قد أتاحت لخطبهم وهم فى هذه المكانة من قومهم أن تقدم لنا صورة حقيقية وصادقة لمبادئهم وآداب مروءتهم، فقد كان الخطيب فى هذه الحال هو اللسان المعبر عن بيئته ومجتمعه لا يكاد يدانيه فى ذلك أحد. ففى كل المناسبات يجب أن تكون خطب الخطيب صورة صادقة لهذه الجماعة فيما ينبغى أن تتحلى به من الفضائل ومكارم الأخلاق.

هذا ما يفرضه الموقف على الخطيب إذا كان فى مكان الزعامة أو الرياسة فمن الطبيعى أن يكون كل ما يتحدث به الخطيب فى هذه البيئة ممثلاً لآداب قومه أو لما ينبغى أن يكون عليه القوم من مروءة وشهامة.

وما من شك فى أن هذه الكثرة من الخطباء تدل دلالة واضحة على ما كانت عليه الخطابة الجاهلية من رقى وازدهار وما لها من أهمية وشأن عظيم عند هؤلاء الناس.

ولم تكن الخطابة قاصرة على الرجال دون النساء، فقد كان

---

(1) الفن ومذاهبه فى النثر العربى للدكتور/ شوقى ضيف، ص30، الطبعة الثانية عشرة، دار المعارف.

هناك من النساء من عرفن بالخطابة واشتهرن بها.

يقول أبو عمرو بن العلاء: "داهيتا نساء العرب هند الزرقاء وعنز الزرقاء وهى زرقاء اليمامة "[1].

وهى التى ضُرِبَ بها المثل[2] فى حدة البصر فقد قيل إنها تبصر على مسيرة ثلاثة أيام.

ويقول الجاحظ: "ومن أهل اللسن واللقن والجواب العجيب. والكلام الفصيح والأمثال السائرة والمخارج العجيبة: هند بنت الخس[3]، وهى الزرقاء وخمعة بنت حابس[4]، ويقال إن حابساً من إياد "[5].

هذا عن الخطباء المشهورين من الرجال والنساء، أما عن الخطب التى خطبها هؤلاء القوم فذاع صيتها، وانتشرت وأصبحت حديث كل العرب فى ذلك الوقت.

يقول الجاحظ: "والعرب تذكر من خطب العرب " العجوز وهى خطبة لآل رقية، ومتى تكلموا فلابد لهم منها أو من بعضها، و" العذراء " وهى خطبة قيس بن خارجة لأنه كان أبا عذرها و " الشوهاء " وهى خطبة سحبان بن وائل، وقيل لها ذلك من حسنها "[6].

وسحبان بن وائل هذا هو الذى ضرب به المثل فى الفصاحة والبلاغة،

---

(1) البيان والتبيين للجاحظ، ج1، ص313.

(2) المثل:"أبصر من الزرقاء. " انظر المستقصى فى أمثال العرب للزمخشرى، ج1، ص18، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، الطبعة الثانية 1408هـ - 1987م.

(3) هى هند بن الخس بضم الخاء وتشديد السين وكانت ذات فصاحة وحكمة.

(4) يقال لها أيضاً "خمعة " بالخاء وإنها أخت هند.

(5) البيان والتبيين للجاحظ، ج1، ص312.

(6) المصدر السابق، ج1، ص348.

لأنه خطب فى صلح بين حيين شطر يوم فما أعاد كلمة، وهو القائل:

لقد علم الحى اليمانون أننى .. إذا قلت أما بعد أنى خطيبها[1]

والعذراء. وهى خطبة قيس بن خارجة ولعلها تكون من أشهر الخطب الجاهلية، على الرغم من أنه لم يصلنا منها شيء، إلا أن الجاحظ أشار إليها فى كتاب البيان والتبيين، حيث يقول: "ألا ترى أن قيس بن خارجة بن سنان لما ضرب بصفحة سيفه مؤخرة راحلتى الحاملين فى شأن حمالة داحس والغبراء. وقال: ما لى فيها أيها العشمتان؟ قالا له: بل ما عندك؟ قال: عندى قِرى كل نازل ورضا كل ساخط وخطبة من لدن تطلع الشمس إلى أن تغرب، آمر فيها بالتواصل وأنهى فيها عن التقاطع، قالوا: فخطب يوماً إلى الليل فما أعاد فيها كلمة ولا معنى"[2].

وهذه الإشارة السريعة إلى خطبة قيس بن خارجة تصور لنا مدى الجهد العظيم الذى كان يقوم به خطيب القوم فى العصر الجاهلى والذى كان يدعو إلى السلم ويحمل رايته حتى يكف الناس عن التقاطع ويلتزموا روح المودة والمؤخاه.

وكذلك تصور لنا مدى قوة تأثير الخطيب فى لحظة حاسمة ينتهزها ليصد فيها سيل الدماء المنهمر بين قومه وعشريته.

ويبدو لنا - أيضاً - أن الخطيب هنا إلى جانب قوة تأثيره البياني، مثالاً خلقياً يحتذى فى حد ذاته.

وكذلك نجد أن من الخطب الجاهلية المشهورة والتى ذاعت وانتشرت

---

(1) المثل "أبلغ من سحبان وائل" انظر المستقصى للزمخشرى، ج1، ص28.

(2) البيان والتبيين، ج1، ص116، 117.

خطبة قس بن ساعدة الإيادي. وهى التى خطبها فى سوق عكاظ، ورواها له النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو الذى قال عنه النبي: "رأيته بسوق عكاظ على جمل أحمر وهو يقول: "أيها الناس اجتمعوا واسمعوا وعوا من عاش مات ومن مات فات... وإنى أرى الناس يموتون ولا يرجعون، أرضوا فأقاموا، أم حبسوا فناموا... ".

وهو القائل ـ أيضاً ـ: "يا معشر إياد، أين ثمود وعاد وأين الأباء والأجداد، أين المعروف الذى لم يشكر والظلم الذى لا ينكر... "[1].

وترجع أهمية هذه الخطبة إلى أنها تدعو إلى التوحيد والإيمان بالبعث وشكر المعروف وإنكار الظلم. ولاشك أن فى ذلك الكثير من آداب المروءة الجاهلية.

ولقد كان لقبيلة إياد وتميم خصلة فى الخطابة ليست لأحد دونهما من العرب، نفهم ذلك من قول الجاحظ " ولإياد وتميم فى الخطب خصلة ليست لأحد من العرب، لأن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو الذى روى كلام قس بن ساعدة وموقفه على جمله بعكاظ وموعظته، وهو الذى رواه لقريش والعرب، وهو الذى عجب من حسنه وأظهر من تصويبه. وهذا إسناد تعجز عنه الأمانى وتنقطع دونه الآمال. وإنما وفق الله ذلك الكلام لقس بن ساعدة لاحتجاجه للتوحيد، ولإظهاره معنى الإخلاص، وإيمانه بالبعث ولذلك كان خطيب العرب قاطبة.

وكذلك ليس لأحد فى ذلك مثل الذى لبنى تميم لأن النبى ـ صلى الله

---

[1] المصدر السابق، ج1، ص308، 309.

عليه وسلم - لما سأل عمرو بن الأهتم عن الزبرقان بن بدر قال " مانع لحوزته مطاع فى أدْنبه "[1]، فقال الزبرقان: "أما أنه قد علم أكثر مما قال ولكنه حسدنى فى شرفى "، فقال عمرو: "أما لئن قال ما قال فواللّه ما علمته إلا ضيق الصدر زمر المروءة. لئيم الخال حديث الغنى". فلما رأى أنه خالف قوله الآخر، قوله الأول، ورأى الإنكار فى وجه رسول اللّه، قال: "يا رسول اللّه رضيت فقلت أحسن ما علمت وغضبت فقلت أقبح ما علمت وما كذبت فى الأولى، ولقد صدقت فى الآخرة. فقال الرسول - صلى اللّه عليه وسلم - عند ذلك " إن من البيان لسحراً ".

فهاتان الخصلتان خصت إياد وتميم دون جميع القبائل[2].

ويتضح لنا مما سبق أهمية الخطابة وقيمتها الأدبية عند العرب فى الجاهلية وبيان أهمية ومكانة الخطابة فى قبيلتى إياد وتميم وإعلاء النبى - صلى اللّه عليه وسلم - لشأنهما بروايته لخطبة قس بن ساعدة وثنائه على كل من قس بن ساعدة وعمرو بن الأهتم. وهما من خطبائهما المشهورين فى الجاهلية، وكذلك يتضح لنا من كلام عمرو بن الأهتم فى وصفه للزبرقان بن بدر بأنه زمر المروءة - أى قليلها - ما كان للمروءة والتأدب بآدابها من أهمية فى مدح الرجل والإعلاء من قدره ومكانته بين قومه وعشريته.

ولاشك - أيضاً - أن طبيعة الجاهلية كانت تدعو إلى نشأة الخطابة بل إن ما ذكرته كتب التاريخ والأدب من أسماء خطبائهم وأقوالهم

---

(1) "أدْنبه " تحريف ويروى مطاع فى عشريته ".

(2) البيان والتبيين، ج1، ص52، 53.

وأخبارهم ومواقفهم[1] كافٍ لتصوير شيء من هذا الرقى الذى وصلت إليه الخطابة الجاهلية.

وإذا كانت هذه الخطابة بفنونها وألوانها فإن الحياة التى عاشها الجاهليون بما فيها من عصبية وصراع قبلى ونزاع دائم وغير ذلك من الصور الصاخبة التى نعرفها عن هؤلاء القوم، هذه الحياة كانت كفيلة أن تبعث على نشأة الخطابة الاجتماعية وشيء قريب من الخطابة السياسية[2]

* * *

منزلة الخطيب وأهمية الجانب الخلقى فى الخطابة

لقد ساعد على ظهور الجانب الخلقى فى الخطابة الجاهلية وتمكنها من التعبير عن قيم الجاهلين ومثلهم ما نعرفه عن منزلة الخطباء ومكانتهم فى البيئة الجاهلية.

فقد كان الخطيب فى معظم الأحوال سيد القوم وزعيمهم وليس هذا بغريب فنحن نرى الخطابة حتى عصرنا الذى نعيش فيه صفة من صفات الزعامة والقيادة وركناً أساسياً من مقوماتها، ولذلك كانت مكانة السيد الاجتماعية فى قبيلته مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بمقدرته

---

(1) البيان والتبيين، ج1، ص116، 328، 349، 358، 360، 365 ومواضع أخرى متفرقة.

(2) راجع فى أساس النظام السياسى تاريخ العرب قبل الإسلام للدكتور / جواد على، ج4، ص212- 215، بغداد 1374هـ - 1954م.
وفى الشعر السياسى فى الجاهلية "تاريخ الشعر السياسى" لأحمد الشايب، ص24: 53، الطبعة الرابعة 1966م، مكتبة النهضة المصرية.

البيانية والخطابية.

يقول الجاحظ مدللاً على ذلك " وفى الخطباء من يكون شاعراً ويكون إذا تحدث أو وصف أو احتج بليغاً مفوهاً بيناً، وربما يكون خطيباً فقط. وبيَّن اللسان فقط. فمن الخطباء والشعراء الأبنياء الحكماء. قس بن ساعدة الإيادي. والخطباء كثير والشعراء أكثر منهم، ومن يجمع بين الشعر والخطابة قليل "[1].

ونجد الجاحظ فى موضع آخر يحدد لنا أسماء الذين اتصفوا بهذه الصفات جميعاً إلى جانب نبوغهم فى الخطابة فيقول:

"ومن القدماء فى الحكمة والرياسة والخطابة عبيد بن شرية الجرهمي: وأسقف نجران، وأكيدر صاحب دومة الجندل وأفيعى نجران وذرب بن حوط: وعليم بن جناب، وعمرو بن ربيعة ـ وهو لُحَنِىٌّ ـ ابن حارثة بن عمرو مزيقياء وجذيمة بن مالك الأبرش "[2].

ويقول الجاحظ ـ أيضاً: "ومن القدماء ممن كان يذكر بالقدر والرياسة والبيان والخطابة والحكمة والدهاء والنكراء: لقمان بن عاد، ولقيم بن لقمان، ومجاشع بن درام، وسليط بن كعب بن يربوع، سموه بذلك لسلاطة لسانه. ولؤى بن غالب وقس بن ساعدة، وقصى بن كلاب. ومن الخطباء البلغاء والحكماء الروساء أكثم بن صيفى وربيعة بن حذار، وهرم بن قطبة وعامر بن الظرب ولبيد بن ربيعة وكان من

---

(1) البيان والتبيين للجاحظ، ج1، ص45.

(2) المصدر السابق، ج1، ص362.

الشعراء"[1].

ولاشك أن هذه الصفات التى وجدت عند الكثير من الخطباء الجاهلين قد أتاحت لخطبهم وهم فى هذه المكانة من قومهم أن تقدم لنا صورة حقيقية صادقة لمبادئهم وآداب مروءتهم.

فقد كان الخطيب فى هذه الحال هو اللسان المعبر عن بيئته ومجتمعه، لا يكاد يدانيه فى ذلك أحد من الناس. ففى كل المناسبات لا يمكن أن تكون خطبة الخطيب إلا صورة لهذه الجماعة فيما ينبغى أن تتحلى به من الصفات وما تعتنقه من المبادئ والآداب وما تتمسك به من الفضائل ومكارم الأخلاق.

هذا هو ما يمليه الموقف على الخطيب إذا كان فى مكان الزعامة والرياسة فمن الطبيعى أن يكون كل ما يتفوه به الخطيب فى مثل هذه البيئة ممثلاً لآداب قومه أو لما ينبغى أن يكون عليه القوم من مروءة.

وإذا كان للشاعر فى الجاهلية مكانته فى هذا المجال باعتباره لسان قومه وحال قبيلته والمتحدث باسمها كما هو معروف، فإنه لن يصل فى ذلك إلى ما وصل إليه الخطيب من تمثيل قومه وتمثيل الجانب الخلقى على وجه الخصوص، وذلك لأن الشاعر غالباً ما يتحدث عن حالات شعور خاصة، فيصور لنا ساعة لهوة أو عبثه، أو يقص لنا تجربة من تجاربه الشخصية التى مرّ بها فى حياته أو يبين لنا رأيه فى أحد ممدوحيه أو يطعن فيمن يشاء من الناس بهجائه. وفى كل هذه الحالات

---

(1) البيان والتبيين للجاحظ، ج1، ص365.

قد يكون مدفوعاً بسبب لايمت بصلة إلا بذاته وحدها. فى حين أننا نجد أن الخطيب لا تكون خطبته ممثلة بأى حال من الأحوال لوجه من هذه الوجوه.

أما إذا كان المقام مقام مفاخرة ومنافرة، فهذا وإن كان يحتوى على شيء من الذم والعيب؛ إلا أنه يبرز - أيضاً - جانباً من الجوانب الخلقية فى حياة القوم. لما تحتوى عليه المفاخرات أو المنافرات بطبيعتها من تعدد وإبراز الفضائل والمآثر والآداب لهؤلاء الناس.

ولكن ينبغى علينا أن نفرق بين شعر الشاعر الذى هو تصوير للحياة فى صورتها الشاملة وجوانبها المختلفة وبين خطبة الخطيب فى هذا المقام التى لا يمكن إلا أن تكون قاصرة على جوانب معينة من حياة قومه، فيفرض الموقف وما يمليه عليه من إحساس بالمسئولية أن يلتزم بآداب المروءة العربية وأن ينبه قومه إليها فتبرز تلك الآداب فى خطابته جلية واضحة غير ممزوجة بميول خاصة أو تجارب شخصية أو حالات فردية كما قد يحدث فى شعر الشاعر.

ولكل هذه الأسباب نستطيع أن نعتمد فى تمثيل آداب المروءة عند العرب على هذا الفن القولى من فنونهم الأدبية. فقد أتاحت ظروف بيئته وطبيعة حياتهم للخطيب منزلة عالية ومكانة مرموقة، بل قضت الظروف - أيضاً - أن تعلو مكانة الخطيب على مكانة الشاعر، ومنزلته، يدلنا على ذلك ما أشار إليه الجاحظ فى الكثير من المواضع حيث يقول:

"قال أبو عمرو بن العلاء: كان الشاعر فى الجاهلية يقدم على الخطيب لفرط حاجتهم إلى الشعر الذى يقيد عليهم مآثرهم ويفخم شأنهم ويهول على عدوهم ومن غزاهم، ويهيب من فرسانهم ويخوف من كثرة عددهم ويهابهم شاعر غيرهم فيراقب شاعرهم. فلما كثر الشعر والشعراء، واتخذوا الشعر مكسبة ورحلوا إلى السوقة وتسرعوا إلى أعراض الناس، صار الخطيب عندهم فوق الشاعر، ولذلك قال الأول: "الشعر أدنى مروءة السرى وأسرى مروءة الدنى".

قال:"ولقد وضع قول الشعر من قدر النابغة الذبياني. ولو كان فى الدهر الأول ما زاده ذلك إلا رفعة"[1].

ويقول - أيضاً :"وكان الشاعر أرفع قدراً من الخطيب وهم إليه أحوج لردِّه مآثرهم وتذكيرهم بأيامهم، فلما كثر الشعراء وكثر الشعر صار الخطيب أعظم قدراً من الشاعر "[2].

ونعتقد أن تفوق الخطيب على الشاعر فى الجاهلية يرجع بالإضافة لما سبق ذكره إلى اقتران الخطابة بالشجاعة والدعوة إلى السلم، ويتضح ذلك لنا من مراثيهم ومدائحهم لساداتهم... وغير ذلك.

ولعلنا نذكر ونحن بصدد الحديث عن مكانة الخطيب، ما حاوله أرسطو وهو يتحدث عن الخطابة والأخلاق حين فصل بن هذه وتلك. وذلك حين رأى جماعة السوفطائيين تنهض بالخطابة نهضة كبيرة. ورأى أن الخطيب كان يبدع وهو ينتصر لجانب ليس من الضرورى أن يكون جانب

---

(1) البيان والتبيين، ج1، ص241.
(2) المصدر السابق، ج4، ص83.

الحق أو جانب الخلق. ثم رأى بعد ذلك أن فاصلاً ينبغى أن يفصل ما بين هاتين الدائرتين[1].

فالمقياس هنا مقياس فنى تجريدى ينظر إلى الفن لذاته دون أن يقترن بما يدل عليه من خلق أو يلتزم به من فضائل وآداب.

وهذا لاشك يختلف عما نجده عند الجاهلين حين ارتفع قدر الخطيب عندهم وانحط قدر الشاعر لأسباب أخلاقية فى المقام الأول.

وإذا كانت الخطابة قد ارتفع قدرها إلى هذا الحد. وكانت هذه هى مكانة الخطيب ومنزلته، فهذا يدلنا على أن الخطابة قد أصبحت عند الجاهليين شيئاً ذا قيمة كبيرة تعلو فى قدرها على الشعر وتتخذ لنفسها مكانة مرموقة عالية.

ويقول الدكتور/ شوقى ضيف:

"وواضح أن الجاحظ يجعل كثرة الشعر والشعراء وحدها هى السبب فى تقدم الخطباء، أما أبو عمرو فيرد ذلك إلى أن هذه الكثرة استتبعت تحول الشعراء إلى التكسب بشعرهم ومسارعتهم إلى الطعن فى الأعراض".

ونظن ظناً أن تفوق الخطيب على الشاعر فى الجاهلية يرجع إلى طائفة متشابكة من الأسباب منها أن الخطابة كانت من لوازم ساداتهم الذين يتكلمون باسمهم فى المواسم والمحافل العظام. ومن أجل ذلك كانت تقترن بها الحكمة والشرف والرياسة، كما تقترن بها الشجاعة. ويضاف إلى

---

(1) الخطابة لأرسطاليس، ترجمة/إبراهيم سلامة، ص23 - 29، القاهرة، 1950م.

هذا السبب فى تفوق الخطيب على الشاعر فى الجاهلية اتساع وظيفته إذ كان يفاخر عن قومه فيشترك بذلك مع الشاعر. كما يشترك معه فى الحض على القتال. ثم ينفرد بمواقف خاصة به كالوفادة على الملوك وكالنصح والإرشاد. وخطبهم فى الأملاك والزواج مشهورة. "

ومن أهم المواقف التى كان ينفرد بها أنه كان يدعو إلى السلم وأن تضع الحرب بين القبائل المتخاصمة أوزارها. أما الشاعر فلم يكن يدعو إلا إلى الأخذ بالثأر وإشعال نار الحرب"[1].

فالدكتور / شوقى ضيف يناقش الأسباب التى جعلت منزلة الخطيب فى الجاهلية فوق منزلة الشاعر معتمداً فى استخلاص بعض هذه الأسباب على كلام الجاحظ وما رواه عن أبى عمرو بن العلاء.

وهذه الأسباب التى عددها الأستاذ الدكتور / شوقى ضيف تؤخذ كلها فى الاعتبار إذ أن أمراً كهذه الأمور لا يمكن فى تعليله الاقتصار على سبب واحد.

ولكن السبب الذى يدل عليه كلام أبى عمرو بن العلاء يعد سبباً جوهرياً لأنه لا يمت بصلة قوية للموضوع الذى نحن بصدد الحديث عنه، فأبو عمرو بن العلاء يرى أن الشعراء قد اتخذوا الشعر مكسبة ورحلوا للسوقة وتسرعوا إلى أعراض الناس. وكل سبب من هذه الأسباب أصبح فى نظر القوم ضربة قاضية تحط من قدر المقام الذى كان يعتله الشاعر.

---

(1) الفن ومذاهبه فى النثر العربى للدكتور / شوقى ضيف، ص28، 29.

إذ تحول به عن جانب الصدق إلى الزيف والمداهنة من أجل كسب يصيبه وتساوى فى ميزان الفن عند الشاعر من يستحق المدح ومن لا يستحق؛ بل إنه يمدح هذا الأخير بكل ما ليس فيه ما دام يملك العطاء يغدق به على الشاعر.

وكأن المسألة إذن لم تعد فى الواقع خصالاً أصيلة يعددها الشاعر وسجايا محمودة يراها فيسجلها، وإنما هى صورة يرسمها ولا يعنيه بعد ذلك أن تكون مطابقة لحقيقة الواقع أو بعيدة عنه.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد من مجافاة الشعر للصدق والواقع عند الشاعر، وتخليه عن كرامته فى أعين الكثيرين من الناس، بل وفى نظر الممدوح نفسه، وإنما تعدى ذلك إلى الاستهتار والاختلاط بطبقة السوقة من الناس. والطعن فى أعراض الناس.

وقد بين لنا القرآن الكريم ذلك فى أروع صورة وأوضحها حيث يقول الله - عز وجل -:"وَالشُّعَرَاء يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ❖أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ❖وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ "[1].

وهذه الآية الكريمة تحدثنا عن الشعراء الذين يخوضون فى أعراض الناس ويتحدثون فى كل شيء دون معرفة للحقيقة، فهم يخوضون فى أعراض الناس لا لشيء إلا أنهم لم يجزلوا لهم العطاء، كما أنهم يمدحون من يعطوهم بالكثير من الصفات حتى وإن لم يتصفوا بها، وهذا ولا شك يتنافى مع آداب المروءة والشهامة العربية. مما حط من قدر

---

[1] سورة الشعراء الآيات من 224 - 226.

هؤلاء الشعراء.

وكل هذا يدلنا دلالة واضحة على أن السبب الحقيقى الذى أدى إلى انحطاط قدر الشاعر وارتفاع قدر الخطيب عليه إنما هو سبب أخلاقى فى المقام الأول، يرجع فيما نظن إلى تمسك القوم بآداب المروءة فى مجتمعهم وأنهم يتخذونها مقياساً لعلو المكانة والمنزلة بينهم.

لقد فقد الشاعر إذن مكانته لأسباب خُلُقيَّة، وعندما ارتفعت مكانة ومنزلة الخطيب عليه لم يكن ذلك إلا لأسباب خلقية واجتماعية، وكأن انحراف الشاعر بشعره عن الفضيلة هو الذى أعطى الخطيب مكانته، لأنه ملتزم بها فى نطاق المفهوم الذى عرفوه عنه، وهذا يدلنا على أن المجتمع الجاهلى كان يسود فيه من يقيسون الأمور بميزان الخلق ويعرضون المسائل على محك الفضيلة.

وكأن نظرية الفن للفن. لم تكن هى المعيار الذى تُقَيمُ به مكانة الأديب فلابد من التزامه بآداب المروءة فى مجتمعه، وكأن الفن يجب أن يلتزم بأصول وقواعد لا يصح الخروج عليها، وكأن شيئاً من قواعد النقد الخلقى قد أخذ به الجاهليون. وطبقوه على شعر الشعراء وخطابة الخطباء، وإلا فلماذا وضع الشعر من قدر النابغة ولو كان فى الدهر الأول ما زاده ذلك إلا رفعة[1].

هذه الأحكام دقيقة لا ينبغى أن نمر بها دون أن نتبين ما تدلنا عليه من دلالات، وهى دلالات ترجع كلها إلى الأصل الخُلقى ومدى تأثيره فى

---

(1) البيان والتبيين للجاحظ، ج1، ص241.

نظر هؤلاء القوم وفى مجتمعهم الذى يعيشون فيه، وينبغى أن نؤكد أن هذه الأحكام ليست هى أحكام الجاحظ أو أبى عمرو بن العلاء، وإنما هى من غير شك أحكام الجاهلين أنفسهم.

فالحديث عن مكانة ومنزلة الشاعر، ومكانة ومنزلة الخطيب حديث متصل بنظرتهم هم. وهذا واضح كل الوضوح من قول أبى عمرو بن العلاء: "صار الخطيب عندهم فوق الشاعر"[1].

وقوله: "وكان الشاعر أرفع قدراً من الخطيب، وهم إليه أحوج ... فلما كثر الشعراء وكثر الشعر صار الخطيب أعظم من الشاعر"[2].

وهكذا يتضح لنا ما كان للخطيب من منزلة عالية ومكانة مرموقة فى الجاهلية ارتفعت فى الكثير من الأحيان على منزلة ومكانة الشاعر. وكان السبب الرئيسى فى ذلك هو التزام الخطيب بآداب المروءة والشهامة العربية، والقيم والأخلاق الجاهلية.

* * *

الصياغة الفنية فى الخطب الجاهلية

تعد الخطابة من أهم فنون الأدب الجاهلى وهى محتاجة إلى البلاغة والخيال الرحب والذهن الصافى والقريحة المتقدة.

يقول الجاحظ فى كتابه " البيان والتبيين" :

"أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة، وذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش، ساكن الجوارح، قليل اللحظ، متخير اللفظ، لا يكلم سيد

---

(1) المصدر السابق، ج1، ص241.
(2) المصدر نفسه، ج4، ص83.

الأمة بكلام الأمة، ولا الملوك بكلام السوقة"[1].

والعرب أصحاب نفوس أبية وهم يتمتعون بحس مرهف وذوق أدبى رفيع، وخيال واسع وبيئة وطبيعة أذكت لديهم الخيال. فقد سمت طبيعتهم وبيئتهم بأخيلتهم، ولذلك يعرفون قيمة اللفظ ووزن العبارة، فالكلمة البليغة تقيمهم والعبارة الرفيعة تقعدهم.

وكما كان البيت من الشعر يرفع شأن قبيلة ويحط أخرى، وما كان يتم ذلك إلا لما للكلمة عندهم من أثر بليغ، فهى تفعل فى النفوس فعل السحر، ونفهم ذلك من قول النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ: "إن من البيان لسحرا" وذلك عندما أنكر على عمرو بن الأهتم مدحه للزبرقان بن بدر وذمه فى وقت واحد، فقال عمرو يا رسول الله رضيت فقلت أحسن ما علمت وغضبت فقلت أقبح ما علمت، وما كذبت فى الأولى ولقد صدقت فى الآخرة.

ويقول الله ـ سبحانه وتعالى: "خَلَقَ الإِنسَانَ ❖ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ"[2]. وجاء فى البيان والتبيين للجاحظ: "البيان بصر والعىّ عمى"[3].

وهؤلاء هم خطباء العربى بين يدى "كسرى" والذين استقدمهم له "النعمان بن المنذر حيث كان "كسرى" يحب مشاهدتهم لما سمع عنهم من البلاغة، وروعة البيان[4].

واقتضت المنازعات بين العرب بعضهم البعض وبين غيرهم أن يتفاخروا

---

(1) البيان والتبيين للجاحظ، ج1، ص92.
(2) سورة الرحمن الآيتان: 3، 4.
(3) البيان والتبيين للجاحظ، ج1، ص77.
(4) انظر ذلك بالتفصيل فى جمهرة خطب العرب لأحمد زكى، ج1، ص50 - 67.

ويتنافروا فاحتاجوا إلى الخطابة فى الإقناع وتأليف الأحزاب والأعوان لنصرتهم.

ويقول الدكتور/ شوقى ضيف: "من الصفات التى تميّزُ عرب الجاهلية أنهم كانوا يحبون البيان والطلاقة والتعبير والبلاغة، ودفعهم ذلك إلى الاحتفال بخطابتهم احتفالاً شديداً، لا من حيث الصقل وتجديد الألفاظ فحسب، بل - أيضاً - من حيث مخارج الكلم، ولعلهم من أجل ذلك كانوا يتزيدون فى جهارة الأصوات، كما كانوا ينتحلون سعة الأشداق وهدل الشفاء[1].

وكان خطباء الجاهلية ينتقون ألفاظهم ويتخيرون معانيهم وكانت خطبهم معروفة بالطول والقصر، ولعل تفضيلهم للخطب القصيرة فوق سهولة الحفظ واستيعاب المعنى رغبتهم فى تجنب ترديد الكلام وتكراره لأن ذلك يورث الملل، وانصراف السامعين عن الإصغاء، ولذلك نرى الجاحظ يشترط فى الخطيب الناجح ألا يردد كلامه، نفهم ذلك من قوله: "وجعل ابن السماك يوماً يتكلم وجارية له تسمع كلامه، فلما انصرف إليها قال لها: كيف سمعت كلامي؟ قالت: ما أحسنه لولا أنك تكثر ترداده. قال: أردده حتى يفهمه من لم يفهمه، قالت إلى أن يفهمه من لا يفهمه قد مله **من فهمه**"[2].

وكذلك نجد انهم قد وصفوا خطباءهم بأنهم مصاقع ولسن،

---

(1) الفن ومذاهبه فى النثر العربى للدكتور/ شوقى ضيف، ص33، انظر أيضاً، البيان والتبيين للجاحظ، ج1، ص13.

(2) البيان والتبيين، ج1، ص104.

وافتخرا بذلك فى أشعارهم، نجد ذلك واضحاً جلياً فى قول: "قيس بن عاصم المنقرى" حيث يصف بنى منقر بالخطابة والفصاحة فيقول:

إنى امرؤ لا يعترى خلقى ∴ دنس يفنده ولا أُفْنُ

من منقر فى بيت مكرمة ∴ والغُصنُ ينبت حوله الغصن

خطباء حين يقوم قائلهم ∴ بيض الوجوه مصاقع لسن[1]

ويقول الدكتور / شوقى ضيف: "∴ولعل مما يدل دلالة قاطعة على أنهم أحسوا بجمال ما يلفظ به خطباؤهم أننا نراهم يشبهون كرمهم بالثياب الموشاة. وبالحلل والديباج وأشباه ذلك[2].

ويقول أبو قردودة الطائى فى رثاء ابن عمار، وكان خطيب مذحج كلها بعد أن قتله النعمان:

يا جفنة كإزاء الحوض قد هدمواو منطلقاً مثل وعى اليمنة الحِبَرَة[3]

ويعلق الدكتور / شوقى ضيف على ذلك بقوله: "فأبو قردودة يحس فى خطب بن عمار ما يحسه فى وشى الحلل المنمقة، وهو إحساس بالغ عبَّر به هو وأضرابه عن عنايتهم بخطبهم ومقدار ما كانوا يحققون لها من مهارة وصنعة، وبلغ من جمال بعض خطبهم أن اقترحوا لها أسماء وإن كانوا يحفظونها ويتوارثونها لروعة بيانها وجودة فصاحتها وبلاغتها[4].

يقول الجاحظ: "ومن خطب العرب "العجوز" وهى خطبة لآل رقية ومتى تكلموا فلابد لهم منها أو من بعضها، و "الغبراء" وهى خطبة قيس ابن

---

(1) البيان والتبيين للجاحظ، ج1، ص219، مجمع الأمثال للميدانى، ج1، ص391.
(2) العصر الجاهلى للدكتور / شوقى ضيف، ص419.
(3) البيان والتبيين للجاحظ، ج1، ص349.
(4) الفن ومذاهبه فى النثر العربى للدكتور / شوقى ضيف، ص37.

خارجة فى حرب داحس، والغبراء سميت بذلك لأنه كان أبا عذرها، و"الشوهاء" وهى خطبة سحبان بن وائل. وقيل لها ذلك من حسنها[1].

وإننا لو نظرنا إلى بعض نماذج الخطب الجاهلية لوجدنا أن الكثير منها بنيت على السجع، فقد جاء فى خطبة مرثد الخير للصلح بين سبيع بن الحارث وميثم بن مثوب قوله: "عفوا بالحلم أبلاد الكلم وأنيبوا إلى السبيل الأرشد والمنهج الأقصد"[2].

فقد بنيت الخطبة على السجع، الذى هو اتفاق الفاصلتين فى الحرف الأخير، كما نجده فى قوله "السبيل الأرشد"، "المنهج الأقصد" وللسجع أثره البالغ فى التأثير على السامعين.

ونجد السجع - أيضاً - فى خطبة قس بن ساعدة الأيادى التى يقول فيها: "أين المعروف الذى لم يشكر، وأين الظلم الذى لم ينكر"[3].

فواضح أن هذه القطعة من خطبة قس مبنية على السجع.

وكذلك نجد السجع - أيضاً - فى تلك المناظرة التى كانت بين عامر بن الظرب وخمصة بن رافع الدوسى وهما عند ملك من ملوك حمير، عندما قال لهما تساءلا حتى أسمع ما تقولان. فقال أحدهما عن أحلم الناس " من عفا إذا قدر وأجمل إذا انتصر، ولم تطغه عزة الظفر"[4].

ولم يقتصر الأمر على السجع فقط، وإنما نجد - أيضاً - الاستعارة المكنية فى قوله عن أحزم الناس: "من أخذ رقاب الأمور بيديه، وجعل

---

(1) البيان والتبيين للجاحظ، ج1، ص348.
(2) الأمالى للقالى، ج1، ص92.
(3) البيان والتبيين للجاحظ، ج1، ص309.
(4) الأمالى للقالى، ج2، ص277.

العواقب نصب عينيه، ونبذ التهيب دبر أذنيه"[1].

حيث جعل للأمور رقاباً، وجعل العواقب نصب عينيه، وجعل عواقب الأمور وهى أشياء معنوية فى صورة الشيء المحسوس المدرك بحاسة البصر.

وكذلك نجد فى قوله " نبذ التهيب دبر أذنيه" كناية عن الترك والإهمال مما دل على شجاعته وحزمه.

وإذا نظرنا إلى خطبة منسوبة إلى وفود العرب فى تعزية سلامة ذى فائش فى ابن له.

يقول جعادة بن أفلح: " فإن العزاء لحزماء الرجال، والجزع لربات الحجال"[2].

فقد جاء البديع عفواً دون تكلف، فقد قابل بين حزماء الرجال وربات الحجال، وهو نوع من الطباق الذى يزيد المعنى قوة ووضوحاً.

وقد جاء فى منافرة بين علقمة وعامر بن الطفيل قوله: "إنى لعف، وإنك لعاهر، وإنى لوفى وإنك لغادر، ففيم تفاخرنى يا عامر؟"[3].

ونلحظ فى تلك المنافرة نوعاً من البديع وهو المقابلة، فقد جاءت المقابلة بين أكثر من معنى كما فى قوله " عف وعاهر" وفىٌّ وغادر" وإذا نظرنا إلى وصية ذى الأصبع العدوانى التى يقول فيها " ألن جانبك لقومك يحبوك، وتواضع لهم يرفعوك، وأكرم صغارهم كما تكرم كبارهم،

---

(1) المصدر السابق، ج2، ص277.
(2) الأمالى للقالى، ج2، ص96 - 97 .
(3) المصدر السابق، ج2، ص277.

يكرمك كبارهم ويكبر على مودتك صغارهم، وأسمح بمالك، أحمى حريمك وأعزز جارك، وأعن من استعان بك"[1].

فنلاحظ أن تلك الوصية قد بنيت على السجع، ونجد كذلك أن فيها طباقاً بين "الصغار والكبار" و "التواضع والرفعة".

وهكذا نجد أن هذه النماذج من الخطب الجاهلية قد اشتملت على الكثير من ألوان البيان والبديع المختلفة من سجع وكناية واستعارة وطباق، وغير ذلك.

يقول الدكتور/ شوقى ضيف:"وما من شك فى أن صناعة السجع تحتاج إلى قيم موسيقية كثيرة حتى يتم معادلاته الصوتية وموازناته الإيقاعية وكانوا يدمجون كثيراً من الصور والتشبيهات والاستعارات فى هذا السجع"[2].

ويقول - أيضاً - : "إنه ثبت عند من كانوا يروون المنافرات والخطب الجاهلية أنها كانت تعتمد اعتماداً شديدا على السجع"[3].

وكما استخدم الخطباء أسلوب السجع فى خطبهم فقد استخدموا - أيضاً - الأسلوب المرسل فى الخطب التى تلقى فى الدعوة إلى السلام وإصلاح ذات البين مثل خطبة مرثد الخير للصلح بين سبيع بن الحارث، وميثم بن مثوب[4].

وفى مثل هذه المواقف كان الخطباء يعمدون إلى استمالة

---

(1) المصدر نفسه، ج1، ص120.
(2) الفن ومذاهبه فى النثر العربى للدكتور/ شوقى ضيف، ص35.
(3) المصدر السابق، ص35.
(4) الآمالى للقالى، ج1، ص91 - 93.

السامعين، والاستيلاء على أفئدتهم وألبابهم بما يثيرونه فى نفوسهم من معانى الخير وفوائد السلام وكلام بليغ يسحر الأنفس ويستولى على المشاعر، كقولهم: "لقد عرفتم أنباء من كان قبلكم من العرب ممن عصى النصح، وخالف الرشد وأصغى إلى التقاطع، ورأيتم ما آلت إليه عواقب سوء سعيهم. وكيف كان صيور أمورهم، فتلافوا القرحة قبل تفاقم النأى واستفحال الداء وأعواز الدواء..".

وكقولهم: "لا تنشطوا عقل الشوارد، ولاتلقحوا العون القواعد وتوارثوا نيران الأحقاد.. وعفوا بالحلم أبلاد الكلم وأنيبوا إلى السبيل الأرشد والمنهج الأقصد".

فيقرر الطرفان فى النهاية قبول الصلح "لا أيها الملك بل نقبل نصحك ونطيع أمرك". وبذلك يتحقق للخطيب ما يصبوا إليه من استمالتهم وإقناعهم بما يريده فى أسلوب مرسل جميل.

ويقول علقمة بن علاثة فى منافرته مع عامر بن الطفيل " أنا أنحر منك للقاح، وخير منك فى الصياح، وأطعم منك فى السنة الشياح" ويرد عامر بن الطفيل بقوله: "والله إنى لأنزل منك للقفرة، وأنحر منك للبكرة، وأطعم منك للهبرة"[1].

ونلاحظ فى تلك المنافرة اعتمادها على الترسم، وهو النثر المرسل الخالص من تساوى الجمل والخالى من التزام التقفية.

يقول الجاحظ: "ولم نرهم مع ذلك يستعملون مثل تدبيرهم فى

---

(1) جمهرة خطب العرب لأحمد زكى، ج1، ص32.

طوال القصائد فى صنعة طوال الخطب، بل كان الكلام البائت عندهم كالمقتضب. اقتداراً عليه، وثقة بحسن عادة الله عندهم فيه، وكانوا مع ذلك إذا احتاجوا إلى الرأى فى معاظم التدبير ومهمات الأمور، مَيَّثُوه فى صدورهم، وقيدوه على أنفسهم، فإذا قوَّمه الثقاف وأدخل الكير وقام على الخلاص، أبرزوه محككاً منقحاً ومصفى من الأدناس مهذباً"[1].

وقد عبر العرب أنفسهم فى شعورهم بصور مختلفة عن مدى تجويدهم فى خطابتهم.

ثانياً- الحكم والأمثال

الحكمة:

والحكمة لون بليغ موجز صائب يصدر عن عقل وتجربة وخبرة بالحياة ويتضمن حكماً مسلماً فى أمر بخير أو نهى عن شر، وقد كثرت الحكم والحكماء فى الجاهلية[2].

وكان فى كل قبيلة حكيم تفزع إليه فى الشدائد والمعضلات والمنافرات، والخصومات.

والحكم من البلاغة بمكان كبير لإيجازها ووضوحها وفصاحتها ودقة معناها وجلال هدفها.

وهى تكسب الكلام سحراً وحلاوة، وتجعله مقبولاً فى الذوق

---

(1) البيان والتبيين للجاحظ، ج3، ص14.

(2) وكانت هند بنت الخس من حكيمات العرب (راجع حديثها مع أبيها فى ص107 ذيل الأمالى).

قريباً من القلب، مسلماً به من العقل والشعور والوجدان.

وإذا اشتهرت الحكمة صارت مثلاً.

والحكمة موهبة من الله ـ تبارك وتعالى ـ يقول ـ سبحانه:

"يُؤتِى الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِى خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ"[1].

والحكمة مما يتداول فى البيئات القبلية التى تعتز برجل القبيلة، أو شيخها فيلتصقون به ويأخذون عنه، ويقتفون أثره فهو لهم المرشد والموجه. ولذلك كثر فى العصر الجاهلى الحكماء وارتفعت مكانتهم ومنزلتهم بين أبناء القبيلة.

ومن هؤلاء الحكماء: أكثم بن صيفى التميمي، ومن حكمه:

"رب عجلة تهب ريثا، رضا جميع الناس غاية لا تدرك، آفة الرأى الهوى، من يزر غباً يزد حباً، من سأل فوق قدره استحق الحرمان، لم يذهب من مالك ما وعظك، ويل للشجى من الخلى، مقتل الرجل بين فكيه، قبل الرماء تملأ الكنائن"[2].

ومنهم أيضاً ذو الإصبع العدواني، وعامر بن الظرب، وقس بن ساعدة، وحاجب بن زرارة، وهاشم بن عبد مناف، وعبد المطلب بن هاشم، وهند بنت الخس،... وغيرهم.

ومن أقدم حكمائهم لقمان المشهور[3]، ومن حكمه "رب أخ لك لم

---

(1) سورة البقرة الآية: 269.

(2) راجع أمثال أكثم بن صيفى فى العقد، ج2، ص62.

(3) يتنازعه العرب والحبشة والمصريون واليهود، وكتاب الذكر الحكيم فى سورة لقمان، ص78، 78/1، 79 فجر الإسلام.

تلده أمك، الصمت حكم وقليل فاعله، آخر الدواء الكي،.

وكان عمرو بن جمهة الدوسى أحد من تتحاكم إليه العرب[1].

ومن حكمهم: العتاب قبل العقاب، كلم اللسان أنكى من كلم السنان، أول الحزم المشورة، أنجز خير ما وعد، اترك الشر يتركك، رب ملوم لا ذنب له، من مأمنه يؤتى الحذر.

المثل:[2]

المثل مأخوذ من قولك: هذا مثل الشيء ومثله أى شبهه، ثم جعلت كل حكمة سائرة مثلاً.

والمثل يعرف بأنه قول سائر شبه مضربه بموردة، أو قل شبه فيه حال المقول فيه ثانياً بحال المقول فيه أولاً، وهذا هو رأى المبرد، وقال المرزوقي: هو جملة من القول تتسم بالقبول وتشتهر بالتداول فتنقل عما وردت منه إلى كل ما يمح قصده منها من غير تفسير يلحقها فى لفظها وقد جمع هذا التعريف بين المثل والحكمة.

ويمتاز المثل بشهرته وإيجازه ودقة مضاه وإصابة الغرض المنشود منه وصدق تمثيله للحياة العامة ولإنكار الشعب على وجه الخصوص، وهو يكسب الكلام سحراً وروعة وجمالاً وبلاغة، وتقال الأمثال الفرضية للحذر من استبداد المستبدين وطغيانهم وهى وسيلة للنقد والسخرية حقاً.

---

(1) الآمالى للقالى، ج143/2..

(2) جمع العسكرى والميدانى الأمثال العربية فى كتابهما/ جمهرة الأمثال للعسكري، ومجمع الأمثال للميداني، وراجع ج74/1 - 82 فجر الإسلام.

والأمثال أصدق شيء يتحدث عن أخلاق الأمة وتفكيرها وعقليتها، وتقاليدها وعاداتها، ويصور المجتمع وحياته وشعوره أتم تصوير، وهى مرآة للحياة الاجتماعية والسياسية والعقلية.

والأمثال يصعب عليك تمييز الجاهلى منها من الإسلامي، لاختلاطها ببعض عند الرواة والمؤلفين ولكن ما يشير إليه المثل من حادث أو قصة أو خبر مما يتصل بالجاهلية قد يساعد على معرفة الجاهلى منها وتمييزه عن الإسلامي.

والأمثال إما حقيقية أو فرضية، فالحقيقية لها أصل وقائلها غالباً معروف، والفرضية ما كانت من تخيل أديب وضعها على لسان حيوان أو جماد أو ما شاكل كل ذلك.

وممن اشتهروا بكثرة الحكم والأمثال فى العصر الجاهلي: أكثم بن صيفى التميمي، ومنهم أيضا: عامر بن الظرب العدوانى - وكان حكيم العرب فى الجاهلية، لما أسن واعتراه النسيان، أمر ابنته أن تقرع بالعصا إذا هو فه عن الحكم[1]. وجار عن القصد، وكانت من حكيمات بنات العرب حتى جاوزت فى ذلك مقدار صحر بنت لقمان. وهند بنت الخس وخمعة بنت حابس بن مليك الإياديين[2].

وكان يقول لعامر: ذو الحلم ولذلك قال الحرث بن وعلة:

وزعمتم أن لا حلوم لنا إن العصا قرعت لذى الحلم

وقال المتلمس فى ذلك:

---

(1) فه عن الشيء: نسيه.

(2) البيان والتبيين للجاحظ، ص2، ص38.

لذى الحلم قبل اليوم ما تقرع العصا

وما عُلّم الإنسان إلا ليعلما

وقال الفرزدق:

فإن كنت أستاتى حلوم مجاشع فإن العصا كانت لذى الحلم تقرع[1]

وقد افتخر به " ذو الإصبع العدوانى" فى بعض شعره[2]:

ولا يكاد يوجد فى العصر الجاهلى سيد مشهور أو خطيب معروف إلا وتنسب إليه طائفة كثيرة من الحكم والأمثال.

ومن هذه الأمثال:

1 ـ " إن غداً لناظره قريب" [3]

قائله قراد بن أجدع، أحد جلساء النعمان بن المنذر فى قصة طريفة خلاصتها: أن النعمان خرج يوماً للصيد وطارد عيراً وهو على فرسه، فانفرد عن رفقته وسقطت الأمطار بشدة، فلجأ إلى خباء فيه رجل طائى يسمى حنظلة ومعه امرأته فأكرماه وذبحا له شاتهما وأطعماه وسقياه دون أن يعرفاه، فلما أصبح عرفه النعمان بنفسه ورغبه إليه أن يطلب متمناه.

فقال الطائي: أفعل إن شاء الله، وبعد زمن أصابته فاقة فذكرته امرأته بوعد النعمان فتوجه إلى الحيرة وذهب إلى الملك حيث كان فى

---

(1) المصدر السابق، ص2، ص38، 39.

(2) الأغانى، ج3، ص90، طبعة دار الكتب المصرية.

(3) قطوف من ثمار الأدب الأستاذين / عبد الغنى إسماعيل، وعبد المنعم سرحان، ص222، مجمع الأمثال 70/6 تحقيق محيى الدين عبد الحميد، مجمع الأمثال 121/1 تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم.

يوم بؤسه، فلما نظر إليه النعمان عرفه وساء موقفه، فعرض عليه أن يطلب حاجته من الدنيا قبل أن يقتله لأنه مقتول لا محالة، فطلب من النعمان أجلاً، فوافق على أن يكفله أحد المعروفين فوقع نظر الطائى على شريك بن عمرو وهو واقف إلى جانب النعمان فى هيئة حسنة فتوجه إليه قائلاً:

يا شريكا يا بن عمـــرو ∴ هل من الموت محالـــة؟
يا أخا كـل مضـــام ∴ يا أخـا من لا أخا لـــه
يا أخا النعمـــان فـك ∴ اليوم ضيفا قد أتى لـــه

فأسى شريك ورفض فوثب من بنى كلب رجل يسمى "قراد بن أجدع" فأعلن أنه كفله مدة غيابه، فإن لم يحضر أخذ به، فرحل الرجل إلى وطنه، ثم مرت الأيام وتوالت الليالى حتى لم يبق سوى يوم واحد، فقال النعمان لقراد

ما أراك إلا هالكاً غداً فقال قراد:

فإن يك مصدر هذا اليوم ولى فإن غداً لناظره قريب

فلما أصبح النعمان أعد عدته ليوم بؤسه وأخذ معه قراد وأمر بقتله فمنعه مستشاره حتى يمر اليوم كله، فلما كانت الشمس فى الحشرجة وقراد مهيئاً للقتل أقبلت امرأته مصطرخة، وهى تقول:

أيا عين بكّى لى قراد بن أجدَعَا رهيناً لقتل لا رهيـناً مُوَدّعـا
أتته المنايا بغتـــــة دون قومـــه فأمسى أسيراً حاضر البيت أضرعا

فإذا هم كذلك إذ رأوا شخصاً من بعيد فاستمهلوا النعمان حتى يظهر الشبح فإذا هو الرجل الطائى، فلما رآه النعمان شق عليه الأمر وكان

يريد قتل قراد فداء للطائى الذى أحسن له يوماً فناداه وسأله: ما الذى حملك على الرجوع وقد أفلت من الموت؟ قال: الوفاء. قال: وما دعاك إليه؟ قال: ديني. قال: وما هو؟ قال: النصرانية، قال: فاعرضها لي، فلما عرضها عليه تنصر النعمان وسائر أهل الحيرة جميعاً، ومنذ ذلك اليوم أقلع النعمان عن سنته السيئة وتاب عن القتل، وجعل أيامه كلها للنعيم، ثم عفا عن قراد والطائي.. وقال: والله ما أدرى أيهما أكرم وأوفى؟ أهذا الذى نجا من القتل ثم عاد إليه؟ أم هذا الذى ضمنه وحنا عليه؟ والله لا أكون الآم الثلاثة.

والمثل يضرب للتأنى فى الأمور وعدم العجلة فى التصرفات وناظره: منتظره.

2 ـ جزاء سنمار:

سنمار هذا كان مهندساً رومياً بنى قصر الخورنق فى مكان قريب من موضع الكوفة للنعمان بن امرئ القيس ملك الحيرة، فلما أتمه ورآه النعمان بدعاً فى البناء خشى أن يبنى المهندس لسواه مثله فرماه من أعلى سطحه ـ فمات.

وقيل هو الذى بنى أطم أُحيحه بن الجلاح فلما أتمه قال له أحيحه: لقد أحكمته، فقال: وأنى لأعرف فيه حجراً لو نزع لنقص صرحه، فسأله عنه فأراه موضعه فدفعه أحيحه من أعلى الأطم فمات، وفى ذلك يقول الشاعر:

جزتنا بنو سعد بحسن فعالنا جزاء سنمار وما كان أذنب

ويقول آخر:

جزى بنوه أبا الغيلان عن كبر وحسن كما يجزى سنمار

المثل يضرب لمن يجزى على الإحسان بالإساءة.

3ـ خلا لك الجو فبيض واصفري:

قائله طرفة بن العبد الشاعر الجاهلى المعروف وقد كان مع عم له فى سفر وهو صبى وذهب طرفة يصطاد القنابر بفخ كان معه فلم يصد شيئاً فلما بدءوا الرحيل رأى القنابر تلقط ما نثر لهن من الحب فقال:

يا لك من قنبرة بمعمـــر .. خلا لك الجو فبيض واصفري
نقرى ما شئت أن تنقـرى .. قد رحل الصياد عنك فابشري
رفع الفخ فماذا تحـذرى .. لابد من صيدك يوماً فاصبري

والمثل يضرب فى الحاجة يتمكن منها صاحبها ولا يخشى مانشاء.

4ـ عند جهينة الخبر اليقين:[1]

هذا المثل يضرب فى معرفة الشيء حقيقة.

وقصته أن حصين بن عمرو بن معاوية بن كلاب خرج ومعه رجل من جهينة فقال له الأخنس بن كعب، وكان الأخنس هذا قد أحدث فى قومه حدثاً فخرج هارباً فلقيه الحصين فقال له: من أنت ثكلتك أمك؟ فقال له: الأخنس: بل من أنت ثكلتك أمك؟ فردد هذا القول حتى قال:

---

(1) مجمع الأمثال، ج2، ص4، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، ط/ دار الفكر، بيروت.

الأخنس: أنا الأخنس بن كعب فأخبرنى من أنت وإلا أنفذت قلبك بهذا السنان، فقال له الحصين أنا الحصين بن عمرو الكلابى فقال له الأخنس: فما الذى تريد؟ قال: خرجت لما يخرج له الفتيان.

فقال الأخنس: وأنا خرجت لمثل هذا. فقال له الحصين: هل لك أن تتعاقد أن لا نلقى أحداً من عشيرتى أو عشيرتك إلا سلبناه قال: نعم، فتعاقدا على ذلك، وكلاهما فاتك بحذر صاحبه فلقيا رجلاً فسلباه، فقال لهما: هل لكما أن تردا على بعض ما أخذتما منى وأدلكما على مغنم؟ قالا: نعم، فقال: هذا رجل من لخم وقد قدم من عند بعض الملوك بمغنم كثير وهو خلفى فى موضع كذا كذا، فردا عليه بعض ماله وطلبا اللخمى فوجداه نازلاً فى ظل شجرة وقدامه طعام وشراب فحييا وحياهما، وعرض عليهما الطعام فكره كل واحد أن ينزل قبل صاحبه فيفتك به فنزلا جميعاً فأكلا وشربا مع اللخمي، ثم إن الأخنس ذهب لبعض شأن فرجع واللخمى يتشحط فى دمه، فقال الجهينى وهو الأخنس، وقد سل سيفه لأن سيف صاحبه كان مسلولاً: ويحك فتكت برجل تخورنا بطعامه وشرابه؟ فقال: اقعد يا أخا جهينة، فلهذا وشبهه خرجنا، فشربا ساعة وتحدثا.

ثم إن الحصين قال يا أخا جهينة، أتدرى ما فعله وما عدل؟

قال الجهينى: هذا يوم شرب وأكل، فسكت الحصين حتى ظن صاحبه قد نسى ما يراد به قال: يا أخا جهينة هل أنت للطير زاجر؟ قال وما ذاك؟ قال: ما تقول هذا العقاب الكاسر؟ قال الجهني: وأين تراها؟

قال: هى هذه وتطاول ورفع رأسه إلى السماء فوضع الجهينى بادرة السيف فى نحره فقال: أنا الزاجر والناجر، واحتوى على متاعه ومتاع اللخمي، وانصرف راجعاً إلى قومه، فمر ببطنين من قيس يقال لهما: مراح وأنمار فإذا هو بامرأة تنشد الحصين، فقال لها من أنت؟

قالت: أنا بكرة امرأة الحصين، قال أنا قتلته، فقالت كذبت ما مثلك يقتل مثله، أما لو لم يكن الحى خلوا ما تكلمت بهذا فأنصرف إلى قومه فأصلح شأنهم ثم جاءهم فوقف حيث يسمعهم وقال:

وكم من ضيغم ورد عبوص أبى شبلين مسكنه العرين
طوت بياض مفرقة بعنب فأضحى فى الفلاة له سكون
وأضحت عرسه ولها عليه بعد هدوء ليلتها رنين
وكم من فارس لا تزدريه إذا شخصت لموقعة العيون
كصخرة إذ تساءل فى مراح وأنمار وعلمهما ظنون
تسائل عن حصين كل ركب وعند جهينة الخبر اليقين
فمن يك سائلاً عنه فعندى لصاحبه البيان المستبين
جهينة معشرى وهموا ملوك إذا طلبوا المعالم لم يهونوا

تعليق على المثل:

عندما نطالع هذا المثل الذى يمثل قصة من قصص النثر التى كانت تنتشر فى أرجاء الجزيرة العربية قبل أن يشرق فيها نور الإسلام ليملأ القلوب القاسية الفاجرة الكافرة لتحل فيها الرحمة والإنسانية محل الوحشية وروح العدوان، فإننا نقف على الحقائق الآتية:

1 ـ شيوع روح الشر والعدوان والرغبة فى إزهاق الأرواح ـ البريئة بغير ذنب أو جريمة.

2 ـ انعدام الأخلاق الطيبة أو الضمير الحى الذى تحفزه وتغذيه العقيدة الصحيحة المنبعثة من الإيمان بالله -تعالى- ومراقبته والخوف منه.

3 ـ انتشار روح الأنانية البغيضة التى تجعل الإنسان وحشاً مفترساً لا يفكر إلا فى نفسه، ويجعل هدفه الأسمى أن يحقق لنفسه المتعة واللذة الحاضرة على حساب آلام الآخرين وشقائهم دون أمل فى ثواب أو خوف من عقاب.

4 ـ شيوع الغدر والخيانة ونقض العهود والمواثيق، وإنعدام روح الأخوة والصداقة لدى الكثيرين الذين جعلوا شعارهم " خذ ما تستطيع برغم من لا يستطيع".

5 ـ التفاخر بالسلب والنهب، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق.

6 ـ انطواء النفوس على الشر بصورة تبرر الاعتداء على القريب وسلب ماله إذا لم يوجد أمام الأشرار سواه:

وأحياناً على بكر أخينا .. إذا ما لم نجد إلا أخانا

7 ـ إن الصعلوك أو اللص القاتل كان لا يطيل الاغتراب كثيراً عن أهله، وإنما يشبه الذئب الذى يفتك بفريسته، ثم يعود إلى صغاره بنصيبها وشيكاً، وهذا ما جعل زوجة الحصين تستبطئ عودته بعد غياب يوم أو بعض يوم.

8 ـ إن المرأة الجاهلية كانت لديها من الشجاعة ما تستطيع أن تجابه به الرجل الشرير دون تهيب منه.

❖❖❖

ثالثا: الوصـــــــــايا

الوصايا جمع وصية، والوصية ما توجهه إلى إنسان لديك، من ثمرة تجربة وحكمة وإرشاد وتوجيه، وكذلك النصيحة فمعناهما متقاربان.

والوصية لون من ألوان الخطابة قاصرة على الأهل والأقارب، والفرق بينهما أن الوصية تكون من الرجل لقومه أو أبنائه ومن الأم لابنتها.

والخطابة تكون فى المشاهد والمجامع والمحافل والحروب والمعارك، وفى المفاخرة والمحاورة وفى الوفادة على الملوك، وفى المواسم الاجتماعية العامة.

والوصايا كثيرة فى النثر الجاهلى وتمتاز بجمالها وتناسب جملها وأساليبها ورقتها وما يشيع فيها من حكمة وصدق تعبير، ونفاذ فكر وثقوب نظر.

ومن ذلك ما قالته إمامة بنت الحارث الشيبانى لابنتها عند الزواج:

"أى بنية: إن الوصية لو تركت لفضل أدب، تركت لذلك منك، ولكنها تذكرة للغافل، ومعونة للعاقل، ولو أن امرأة استغنت عن الزوج لغنى أبويها وشدة حاجتهما إليها، كنت أغنى الناس عنه، ولكن النساء للرجال خلقن ولهن خلق الرجال.

أى بنية: إنك فارقت الجو الذى منه خرجت، وخلفت العش الذى

فيه درجت، إلى وكر لم تعرفيه، وقرين لم تألفيه، فاحفظى له خصالاً عشراً، يكن لك ذخراً.

أما الأولى والثانية: فالخشوع له بالقناعة، وحسن السمع له والطاعة.

وأما الثالثة والرابعة: فالتفقد لموضع عينه وأنفه، فلا تقع عينه منك على قبيح، ولا يشم منك إلا أطيب الريح.

وأما الخامسة والسادسة: فالتفقد لوقت منامه وطعامه فإن تواتر الجوع ملهبة، وتنغيص النوم مغضبة.

وأما السابعة والثامنة: فالاحتراس بماله، والإرعاء على حشمه وعياله، وملاك الأمر فى المال حسن التقدير، وفى العيال حسن التدبير.

وأما التاسعة والعاشرة: فلا تعصين له أمراً، ولا تفشين له سراً، فإنك إن خالفت أمره، أوغرت صدره، وإن أفشيت سره لم تأمنى غدره، ثم إياك والفرح بين يديه إن كان مهتماً والكآبة بين يديه إن كان فرحاً"[1].

المناسبة:

تزوجت" أم إياس " من عمرو بن حجر، ولما حان وقت رحيلها إلى بيت زوجها، جلست أمها " إمامة بنت الحارث الشيبانى" توصيها بالوصية السابقة.

---

(1) الأغانى، ج5/ 70، وجمهرة خطب العرب، ص47.

معانى المفـردات:

أى بنية ـ تصغير ابنة، الجو ـ تقصد المحيط الذى كانت تعيش فيه بعاداته وتقاليده وأخلاقه، منذ خرجت: أى نشأت وتربيت فيه، درجت ـ درج الصبى دروجاً من باب قصد، بمعنى مشى قليلاً فى أول ما يمشي، والمقصود عشت فيه طفولتك، وكر ـ وكر الطائر عشه إن كان فى جبل أو شجر، القرين ـ المماثل فى السن والعلم والقوة والمكانة الاجتماعية، أى مساويه فى كل شيء.

خصال: جمع خصلة بفتح الخاء وسكون الصاد. الطبيعة والصفة، ذخراً: الذخر بضم الذال ما أعددته لوقت الحاجة إليه، الخشوع: خشع خشوعاً إذا خضع، القناعة: الرضا، التفقد: تفقد الشيء طلبه عند غيبته، تواتر: التواتر تتابع الشيء وتعاقبه مرة وراء مرة، تغيض: إفساد، الاحتراس بمال: المحافظة عليه، الإرعاء: الرعاية وحسن المعاملة، حشمة: الخدم، لا تفشين: لا تذيعن له سراً، أوغرت صدره: ملأته حقداً وكرهاً، مهتماً: حزيناً أو مشغولاً بأمره، والكآبة: الحزن.

الشرح:

الأم فى ليلة عرس ابنتها، ليلة الفراق والوداع، الليلة التى انتهت بها حياة كانت تنعم فيها بالرعاية والحب والحنان، حياة فيها تساهل وتغاض عن هفوات كانت تصدر منها عفوا أو بقصد، لا يهم، لأنها كانت تقابل من أب مدفق وأم رحيمة عطوف، فهى لا تنال منهما مهما فعلت إلا الصفح

أو التأنيب الهين الذى يتساوى مع الدعابة، ولكنها فى هذه الليلة وهى تودع أباها وأمها تودع معهما أيضا الحنان الدافق والرعاية الحنون، إلى حياة أخرى تختلف عن تلك الحياة كثيرا، وأهون ما توصف به أنها حياة المسئولية والمشاركة وهى قليلة الخبرة لا تعرف من أمر هذه الحياة شيئا، لا تدرى ما يجب فعله، وما يتحتم تركه، لذا قدمت إليها أمها ما لديها من خبرة لأنها سبقتها فى هذا المضمار، ولأنها - أيضا - تحب لحياة ابنتها الاستمرار والنماء، ولا تريد أن يعترضها ما يعكر صفوها ويدعو إلى التوقف.

لذا وضعت خلاصة ما لديها من تجارب، وما أحست أنه الطريق الصحيح فى الحياة الزوجية، لذا نادتها لكى تلتفت إليها وتفرغ ذهنها مما تفكر فيه، وتكون يقظى مترقبة، واعية لما تسمع، فقالت لها: أى بنية: لو كانت الوصية التى تلقى على آذان الفتيات المتأهبات للزواج، لو كانت هذه الوصية تترك ولا تقدم للفتاة بسبب أنها صاحبة أخلاق فاضلة وصفات كريمة لكانت تركت لهذا السبب بالنسبة لك، فأنت تمتازين بكل ما هو جميل وعفيف، وما كنت جلست منك هذا المجلس، ولا قدمت إليك نصيحة مطلقا، ولكن الوصية دائما تذكر الذى غفل مع علمه بالذى يقال له، وهى - أيضا - تعين العقلاء على التفكير فى المهم والمفيد فالنصيحة إذن توجه للعاقل تعينه، وللغافل تذكره، وصاحب الخلق تصونه، هذا بالنسبة لضرورة النصيحة، أما ضرورة الزواج فكل فتاة لا تستطيع الاستغناء عنه ولو كان أبوها غنيا

موسرا، فالثراء والمال ليس المطلب الأول والوحيد، ولا الغرض الذى يتجه إليه الشباب بزواجهم، لو كان الأمر كذلك أو كان سببه استغناء الآباء عن بناتهم، لكنت أنت أولى الفتيات بترك الزواج، لأن أباك من الأثرياء، ولأننا لا يمكننا الاستغناء عنك ولكن النساء خلقن من أجل الرجال، والرجال خلقوا من أجل النساء، حتى تستمر الحياة وتعمر، فلو امتنع الزواج لتوقف التناسل وجمدت الحياة وتلاشت الكائنات من على الأرض.

ثم تعود إلى النداء مرة أخرى لأنها ستعرض عليها النصيحة بعد أن فرغت من المقدمة الضرورية التى ارتبطت بالموضوع، ارتباطا وثيقا كما نبين فيما بعد، فقولها السابق كله مقدمة هيأت الفتاة لسماع النصيحة، وكانت هذه النصيحة مكونة من عشر صفات، جمعت لها كل صفتين فى فقرة واحدة.

الأولى والثانية:

أن تكون خاشعة له، متواضعة عنده مستكينة فى حضرته لا عن قهر، أو إجبار وإنما برضى كامل منها واقتناع بأن هذا واجب عليها أن تؤديه باستسلام، وبغير تمرد، *والثانية* أن تسمع له وتصغى لما يقول بانتباه وتركيز لتنفذ بعد ذلك كل ما يطلبه منها، وتكون أيضا نعم السمير المؤانس فى ليله ونهاره.

أما الصفة الثالثة:

التى يجب أن تلزم نفسها بها مع زوجها، هى أن تعنى عناية

كاملة بملبسها وهيئتها حتى لا يرى منها إلا ما يحب فيها، ويُظهرها بالمظهر الجميل، فلابد أن تتزين له بما يحسن صورتها فى عينه.

أما الرابعة:

فهى العناية بالروائح الزكية التى تنبعث من ثيابها وجسمها حتى لا يشم منها إلا أطيب الريح.

أما الخامسة والسادسة:

فيجب أن تهتم كثيرا بطعامه فأقرب طريق إلى قلب الرجل هى معدته، وعلى ذلك يكون الطعام نظيفا شهيا يطهى طهيا جيدا ليقبل عليه بشهية.

وكذلك فراشه الذى ينام فيه، عليها أن تحرص على نظافته ونظامه وترتيبه، لأن شدة الجوع تلهب مشاعره وتجعله متوترا غاضبا فيثور لأتفه الأسباب، وكذلك إذا لم يجد مكانا مريحا يجعله يأخذ قسطه من الاستقرار فإنه ينقض حياته، ويفسد ذوقه وينعكس ذلك عليك فتسوء العلاقة وتفسد العشرة.

أما السابعة والثامنة:

فهما أن تحافظ على ماله، فلا تنفقه إلا فى النافع المفيد، ولا تبدده فى غير حاجة، وكذلك المحافظة على خدمته وأولاده، بحسن المعاملة والتربية السليمة، والعطف الذى لا يفسد والحزم الذى يضع كل أمر فى موضعه من غير قوة أو عنف.

أما التاسعة والعاشرة:

فتتعلق بالأوامر التى يلقيها زوجها، والسر الذى يأتمنها عليه، أما الأوامر فعليها الطاعة المطلقة بلا مناقشة أو اعتراض، فربُّ البيت عليه أن يأمر فيطاع، وربَّة البيت عليها أن تسمع وتجيب حتى لا تملأ صدره بالحقد والضغينة، فالرجل يكره أن يخالفه أحد، أو يهدر كلامه.

وأما السر الذى حفظه عندها، فلا ينبغى أن يذاع وينتشر لأنه حينئذ تكون قد رفعت غطاء استتر به، وعرضته للنقد والتجريح وربما المهانة وأوقفته موقفا مخزيا ضعيفا أمام خصومه، يمكنهم أن يهجموه منه ويصرعوه، ففى هذه الحالة تتحول امرأته إلى خصم يعمل جاهدا على هزيمته والقضاء عليه، وربما دبر لذلك حتى يفجؤها به ويغدر بها.

وأخيرا ذيلت ذلك كله بأمر مهم لم يدخل ضمن التقسيمات العشرة التى طلبتها منها وهى وإن كانت خارجة عن نطاق النصائح العشرة، إلا أنها مهمة وجيزة، طلبت منها ألا تكون ضد مشاعره، فإذا رأته حزينا مهموما مغموماً، تبدو عليه الكآبة والشقاء، فعليها أن تأخذ الصمت وتحاول التسرية عنه وإزالة أسباب حزنه وألمه، ومهما كان الحال أو عجزت عن تسليته فمحظور عليها أن تفرح أو تضحك أمامه وهو على هذه الحالة من الانقباض والتعاسة.

أما إذا جاءها فَرِحاً متهلل الوجه، بادى البشاشة والرضا، فعليها أن تزيد من فرحه وسروره، بما تبديه أمامه من سعادة وما تظهر من رضا

بحياتها معه وفخرها به، ومباهاتها بأنها أصبحت زوجا له، ولا تظهر شيئاً من الحزن أو الألم، فإن ذلك يجعله ينفر منها وربما ابتعد عنها أو أقصاها عن حياته، فالرجل يطلب من زوجه أن تكون مصدرا لسعادته، مستودعا لأفراحه ولا يرضيه أبدا أن تكون جالبة لشقائه أو معينة للأوجاع والمآسى كى تتألب عليه.

❖ **ومن الوصايا ـ أيضا ـ وصية ذى الإصبع العدواني، يوصى ابنه أسيدا:**

– " يا بنى إن أباك قد فنى وهو حي، وعاش حتى سئم العيش، وإنى موصيك بما إن حفظته بلغت فى قومك ما بلغته، ألن جانبك لقومك يحبوك، وتواضع لهم يرفعوك، وأبسط لهم وجهك يطيعوك، ولا تستأثر عليهم بشيء يسودوك، وأكرم صغارهم، كما تكرم كبارهم، يكرمك كبارهم، ويكبر على مودتك صغارهم، واسمح بمالك وأعزز جارك وأعن من استعان بك، وأكرم ضيفك، وصن وجهك عن مسالة أحد شيئا، فبذلك يتم سؤددك[1].

❖ **ونصح أوس بن حارثة ابنه مالكا حين حضره الموت فقال:**

– يا مالك: المنية ولا الدنية، والعتاب قبل العقاب، والتجلد لا التقلد، وأعلم أن القبر خير من الفقر، ومن كرم الكريم الدفاع عن الحريم،

---

(1) الأغانى، ج3 / 6. الهيئة العامة للكتاب.

ومن قل ذل، وخير الغنى القناعة، وشر الفقر الضراعة...الخ[2].

❖ **وأوصت أعرابية ولدها وقالت:**

– "أى بنى إياك والنميمة فإنها تزرع الضغينة، وتفرق بين المحبين، وإياك والتعرض للعيوب فتتخذ غرضا، وخليق ألا يثبت الغرض على كثرة السهام وقلما اعترضت السهام غرضا إلا كلمته حتى يهيئ ما اشتد من قوته، وإياك والجود بدينك والبخل بمالك، وإذا هززت فاهزز كريما يلن لهزتك، ولا تهز لئيما فإن الصخرة لا ينفجر ماؤها[1].

❖❖❖

رابعا: سجع الكهان

الكهانة نوع من الرجم بالغيب، والإدعاء بمعرفة المجهول والتنبؤ بالمستقبل والإخبار بالماضى.

والكهان جماعة تمارس الكهانة وقد حرصوا فى أقوالهم على النثر المسجوع ليسهل التأثير فى السامعين والسيطرة على مشاعرهم وصولا إلى رغباتهم وما يبغون منهم، عن طريق الألغاز والتعمية فى الجواب.

وكان فى العرب كهان يتنبأون بالحوادث، وللعرب اعتقاد فيهم، فهم ملاذ المريض وطمأنينة الحائر والحكم فى الخصومة.

ومن أشهر هؤلاء الكهان: شق بن الصعب، وسطيح الذئب، وطريفة امرأة عمرو بن عامر الحميرية، وكانت باليمن، وهى التى

---

(2) الأمالى للقالى، ج1 / 101، 102.

(1) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج4/ 154.

تنبأت بخراب سد مأرب، ومنهم، فاطمة الخثعمية وكانت بمكة ولها قصة مع والد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عبد الله بن عبد المطلب قبل أن يتزوج بآمنة بنت وهب، ومنهم زبراء، وسواد بن قارب وغير هؤلاء كثيرون.

ويتحدث الرواة بأعاجيب كثيرة لأولئك الكهان وبعجائبهم فى الإخبار بالغيب ومعرفة الحوادث.

وكانت الكهانة منتشرة فى الجاهلية قبل البعثة، وتدور غالبا حول التبشير بنبى يبعث، وتفسير الرؤى، ومعرفة ما خفى عنهم من الحوادث. وهى نوع من الفراسة والإلهام وصدق الحواس وصفاء الروح والقدرة على التحليق فى جو سماوى مجرد من حدود المادة، وكثيرا ما تصدق التنبؤات فى مثل هذه الأحوال.

ويذكر الجاحظ فى البيان والتبيين أسماء الكهان والحكام والخطباء والعلماء من قحطان[1] ومنهم ـ كما يقول ـ فى الجاهلية عبيد بن شرية، وشق بن الصعب، وربيع بن ربيعة السطيح الذئبي، والمأمور الحارثي، والليان بن عبد المدان، الشريفان الكاهنان[2].

- **صور من سجع الكهان:**

1 ـ حديث زبراء الكاهنة مع بنى رئام:

كان ثلاثة أبطن من قضاعة متجاورين بين الشحر وحضرموت وهم: بنو ناعب، وبنو داهن، وبنو رئام، وكان بنو ناعب وبنو داهن

---

(1) البيان والتبيين، ج1، ص261، 262.
(2) المصدر السابق، ج1، ص358.

متظاهرين على بنى رئام، وكانت بنو رئام أقلهم عدداً وأشجعهم لقاء، وكان لهم عجوز تسمى خويلة، كان يدخل عليها أربعون رجلاً كلهم لها محرم: بنو أخوة، وبنو أخوات، وكانت خويلة عقيماً، وكان لها أمة تسمى زبراء، وكانت زبراء كاهنة.

فقالت زبراء لخويلة: انطلقى بنا إلى قومك أنذرهم، فأقبلت خويلة تتوكأ على زبراء، فقاموا إجلالاً لها.فقالت: يا تمر الأكباد، وشجا الحساد، هذه زبراء، تخبركم عن أنباء، قبل إنحسار الظلماء، بالمؤبد[1] الشنعاء، فاسمعوا ما تقول، قالوا: وما تقولين يا زبراء؟ قالت: " واللوح الخانق، والليل الغاسق، والصباح الشارق، والنجم الطارق، إن شجر الوادى ليأدوا[2] ختلاً، ويحرق أنياياً عصلاً[3]، وأن صخر الطود لينذر ثكلاً، لا تجدون منه معلاً [4].

وانصرفت عنهم، فانصرف منهم أربعون رجلاً، وبقى ثلاثون، فرقدوا فى مشربهم، وطرقتهم بنو راهن وبنو ناعب فقتلوهم أجمعين، وأقبلت خويلة عند الصباح، فوقفت على مصارعهم، ثم عمدت إلى خناصرهم فقطعتها، وانتظمت منها قلادة وألقتها فى عنقها[5].

2- حديث مصاد بن مذعور وخروجه فى طلب الذود، وما أخبر به الجوارى الأربع الطوارق بالحصا[6].

---

(1) الداهية والأمر العظيم.
(2) أى يختل.
(3) حرق أنيابه: حك بعضها ببعض، والعصل: المعوجة.
(4) أى منجى.
(5) الأمالى للقالى، ج1، ص125، 126.
(6) المصدر السابق، ج1، ص141

3- حديث الرواد الذين أرسلتهم مذحج ووصفهم الأرض لقومهم بعد رجوعهم[1].

4 - حديث ابنة الخس مع أبيها[2]، ووفود عبد المسيح - رسول كسرى - على سطيح الكاهن[3].

5- وكانت هند بنت عتبة زوجاً للفاكه بن المغيرة المخزومى وكانت داره ناديا لقومه، فاتهمها الفاكه برجل واستلحفها بأبيها، فخرج بها والدها إلى بعض الكهان يستخبره عن أمرها، وأخرج معها نسوة من قومها، وأقبل معهم الفاكه فى رجال من قومه، فلما شارفوا ديار الكاهن رأى عتبة من ابنته إنكساراً وتغيراً، فقال لها: يا بنية لا تكتمينى من أمرك شيئاً، فإن كان ما بك لريبة نرجع ولا بأس عليك، فقالت هند: لا والله يا أبت، ما ذاك لريبة ولا فاحشة" ولكنكم تقدمون علىَّ بشر يخطئ ويصيب، وأخشى أن يسمنى بسمه، تبقى علىَّ وصمة عار آخر الدهر، قال: سأبلوه لك، ثم خبأ خبيئاً، وأقبلوا حتى أتوا الكاهن، فأخبرهم بخبيئهم، ثم أقبل على هند فقال: انهضى غير رسحاء ولا زانية، وستلدين ملكاً اسمه معاوية.

مميزات النثر الجاهلي

أولا - المعاني:

يمتاز النثر الجاهلى فى معانيه بما يأتي:

---

(1) المصدر نفسه، ج1، ص178.
(2) ذيل الأمالي، ص102.
(3) العقد الفريد لابن عبد ربه، ج178/1 طبعة 1928م.

1 ـ الصدق والسذاجة والبساطة وعدم المبالغة أو الغلو.

2 ـ عدم التعمق فى المعانى أو تعقيدها أو التركيب والمزج بينها، لأنهم كانوا فى بداوة تامة فى حياتهم وتفكيرهم وكل شئون معيشتهم.

3 ـ معانيهم مستمدة من بيئتهم وحياتهم، ومنطلقة مع الحرية التى ألفتهم وألفوها، وهى بدوية كلون حياتهم، تنطق عن فطرة البداوة وتفكيرها وإحساسها.

4 ـ كثرة الحكم والأمثال فى نثرهم.

5 ـ تفكك المعانى وكثرة الانتقال بينها.

ثانيا ـ الأغـــــراض:

ويمتاز النثر الجاهلى فى أغراضه بأنه كان يلقى فى:

1 ـ الدعوة إلى الانتقام والأخذ بالثأر وإشعال نار الحرب أو الدعوة إلى الصلح والسلام.

2 ـ المفاخرة والمنافرة والمحاورة والكهانة.

3 ـ وصف مشاهد الحياة ومظاهرها فى الصحراء.

4 ـ التوصية بفعل خير أو إسداء معروف أو سلوك نهج محمود أو بُعْد عن خصلة مذمومة.

5 ـ الوفادة على الأمراء والملوك إلى غير ذلك من شتى أغراض النثر فى العصر الجاهلي، كالتبشير بنبى جديد - أو - النهى عن الرذائل والآثام.

ثالثا ـ الألفـــــاظ:

أما ألفاظ النثر الجاهلى فيبدو عليها السذاجة والبداوة فأحياناً سهلة رقيقة، وأحياناً وحشية وغريبة، ولم يكونوا يتأنفون فى اختيار اللفظ ذى النفعة المتشابهة أو الجرس المتآلف، ويندر استعمالهم للألفاظ الأعجمية فى نثرهم إلا قليلاً منهم ممن اتصلوا بالفرس وسواها من الأمم القديمة.

رابعا ـ الأسلوب:

وأسلوب النثر الجاهلى يمتاز بالخلو من اللحن والإيجاز وقلة المترادف، وإيثار الكناية القريبة على التصريح، وبقصر الجمل غالباً، وخاصة فى الحكم والأمثال، وسجع الكهان، كما يمتاز بعدم التكلف فى الصياغة والأسلوب، وإهمال الربط بين الجمل وعدم قصد المحسنات البديعية أو تعمدها، وكلامهم يخلو منها إلا نادراً وعن غير عمد أو قصد وفى أسلوبهم الجزالة والقوة وشدة الأسر، والوضوح، والقرب إلى الذوق الأدبى المطبوع.

❖❖❖

obeikandl.com

أهـم المصـادر والمراجـع

1. الأزمنة والأمكنة للمرزوقى.
2. الإصابة فى تمييز الصحابة، تأليف شيخ الإسلام شهاب الدين أبى الفضل، المطبعة المشرقية، 1325هـ- 1905م.
3. الأصمعيات للأصمعى، تحقيق عبد السلام هارون، دار المعارف.
4. الأصول للدكتور تمام حسان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1988م.
5. الأغانى لأبى الفرج الأصفهاني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1992م.
6. أمال المرتضى للشريف الرضى، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الكتاب العربى، بيروت، لبنان.
7. الأمالى للقالي، الطبعة الثالثة، مطبعة السعادة بمصر، 1953م.
8. الأنواء لابن قتيبة.
9. بلوغ الإرب فى معرفة أحوال العرب، للتويري.
10. البيان والتبيين للجاحظ، تحقيق وشرح/ عبد السلام هارون، مكتبة الخانجى، القاهرة.
11. تاريخ آداب العرب للأستاذ مصطفى صادق الرافعى.
12. تاريخ الأدب العربى لبلاشير.
13. تاريخ الأدب العربى للدكتور على الجندى، مكتبةالنصر.
14. تاريخ الأدب للدكتور على الجندى، مكتبة الأنجلو المصرية،

1969م.

15.تاريخ الشعر السياسى لأحمد الشايب، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الرابعة.

16.تاريخ العرب القدامى لفيليب متى.

17.جمهرة أشعار العرب للقرشى..

18.الحيوان للجاحظ، تحقيق/ عبد السلام هارون، طبعة الحلبي.

19.خزانة الأدب للبغدادى، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، دار الكتاب العربى للطباعة.

20.الخطابة لأرسطو طاليس، ترجمة إبراهيم سلامة، القاهرة، 1950م.

21.ديوان الأعشى الكبير، تحقيق وشرح الدكتور محمدمحمد حسين، 1974م.

22.ديوان امرئ القيس، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف.

23.ديوان أوس بن حجر، تحقيق الدكتور محمديوسف نجم. دار صادر للطباعة والنشر، الطبعة الثانية.

24.ديوان حميد بن ثور الهلالى، تحقيق عبد العزيز الميمنى، طبعة دار الكتاب.

25.ديوان طفيل الغنوى، تحقيق محمد عبد القادر أحمد.

26.ديوان عامر بن الطفيل.

27.ديوان عبيد بن الأبرص، تحقيق دكتور حسين نصار.

28.ديوان كعب بن زهير، شرح ودراسة الدكتور مفيد قميحة.

29.ديوان المتلمس الضبعى.

30.ديوان النابغة الذبياني، تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف.

31.سمط اللآلى للبكرى، تحقيق عبد العزيز الميمنى، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1936م.

32.السيرة النبوية، لابن هشام.

33.شرح القصائد التسع المشهورات لابن النحاس.

34.شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات لابن الأنبارى.

35.شرح القصائد العشر للتبريزى.

36.شرح المعلقات السبع للزوزنى.

37.شرح ديوان عنترة، الدار العلمية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان.

38.شرح شعر زهير، تحقيق الدكتور فخر الدين قباوة، منشورات دار الآفاق، بيروت.

39.الشعر الجاهلى، منهج فى دراسته وتقويمه للدكتور محمد النويهى.

40.الشعر الجاهلى للدكتور/ محمد عبدالمنعم خفاجى، الطبعة الثانية، 1973م.

41.الشعر والشعراء لابن قتيبة، تحقيق / أحمد محمد شاكر، الطبعة الثالثة.

42.شعراء النصرانية للويس شيخو.

43.طبقات فحول الشعراء لابن سلام، مطبعة المدنى.
44.العصر الجاهلى للدكتور/ شوقى ضيف، دار المعارف، الطبعة السابعة.
45.العقد الفريد لابن عبد ربه، تحقيق دكتور مفيد قميحة، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
46.العمدة لابن رشيق القيروانى، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، دار الجيل، الطبعة الرابعة، بيروت، لبنان.
47.الفاخر لأبى طالب المفضل بن سلمة، تحقيق عبد العليم الطحاوى، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
48.فصل المقال فى شرح كتاب الأمثال لأبى عبيد البكرى.
49.الفن ومذاهبه فى النثر العربى، للدكتور شوقى ضيف، الطبعة الثانية عشر، دار المعارف.
50.الفهرست لابن النديم.
51.الكامل فى التاريخ لابن الأثير.
52.لسان العرب لابن منظور، دار المعارف.
53.مجالس ثعلب، شرح وتحقيق/ عبد السلام هارون، دار المعارف.
54.مختارات من النقد الأدبى المعاصر للدكتر رشاد رشدى، مكتبة الأنجلو المصرية.
55.مروج الذهب للمسعودي، تحقيق محيى الدين عبد الحميد، 1966م.
56.المزهر فى علوم اللغة للسيوطي.

57.مصادر الشعر الجاهلى للدكتور ناصر الدين الأسد.

58.معجم الأدباء لياقوت الحموى.

59.معجم ما استعجم للبكرى.

60.المعمرون والوصايا لأبى حاتم السجستانى، تحقيق عبد المنعم عامر، 1966م، دار إحياء الكتب.

61.المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام للدكتور جواد علي، الطبعة الثانية، 1978م.

62.المفضليات للمفضل الضبي، تحقيق عبد السلام هارون، الطبعة السابعة، دار المعارف.

63.مقدمة ابن خلدون، كتاب التحرير، 1386هـ/1966م.

64.مقدمة القصيدة العربية فى الشعر الجاهلى، للدكتور حسين عطوان.

65.نوادر المخطوطات، تحقيق عبد السلام هارون.

66.وفيات الأعيان لابن خلكان.

***

obeikandl.com

المحتويـــات

obeikandl.com

الموضوع	الصفحة
الفصل الأول	7
أحوال العرب وحياتهم فى الجاهلية	
العرب القدامى وأقسامهم	9
العصور الأدبية وجاهلية الشعر	17
الحياة السياسية وبعض المدن المهمة	24
الحياة الاجتماعية والدينية	30
الفصل الثانى	37
الحياة الأدبية عند المناذرة وفنون الشعر الجاهلى	
فنون الشعر الجاهلى ومعلقاتها	54
الفصل الثالث	69
موضوعات الشعر الجاهلي ومصادره	
أهم موضوعات الشعر	71
أهم مصادر الشعر	88
الفصل الرابع	97
الرواية الشفوية والرواة	
اعتماد الشعر الجاهلى على الرواية الشفوية	99
رواة الشعر الجاهلى	105
الفصل الخامس	121
منهج القصيدة ومظاهر القبلية	
منهج القصيدة الجاهلية	123
التقاليد الفنية ومظاهر القبلية	125

الموضوع	الصفحة
الفصل السادس	145
دراسة بعض النصوص الجاهلية	
عنترة بن شداد ودراسة معلقاته.....	147
النابغة الذبياني ودراسة قصيدته "عوجوا فحيوا لنعم دمنة الدار.....	171
الفصل السابع	199
البيئة الطبيعية وخصائص شعر الأطلال	
البيئة الطبيعية.....	201
خصائص شعر الأطلال.....	235
الفصل الثامن	271
دراسة بعض النصوص النثرية	
أولاً –الخطابة.....	273
ثانياً - الحكم والأمثال.....	297
ثالثاً – الوصايا.....	308
رابعاً - سجع الكهان.....	316
مميزات النثر الجاهلي.....	319
أهم المصادر والمراجع.....	323
المحتويات.....	329